التّفاضُلُ وتقابُلُ الحِجَاج

(دراسةٌ في مفاخرةِ ابنِ صفوان وابنِ مخرمةَ في مجلسِ أبي العبّاس السفّاح)

أ.د. رمضان صالح عباد

لطيف علي حسين

الملخّص

دارتْ المفاخرةُ بين ابنِ صفوان وابنِ مخرمةَ, وقد حقّق ابنُ صفوان الفوزَ والغلبةَ على المقابل معتمداً على قدرتِهِ العاليةِ في التفاضل وتقابل الحجج, وإدارة الاسلوبِ الفخريّ الذي أدّى إلى كبت المقابلِ وإغلاق جميعِ منافذه الحجاجية وإضعافِ قواه الخطابيّةِ عبر إيراد المفَاخِرِ الّتي يتحلّى بها الفرعُ المضريُّ وتعدادِ فضائله ممثلاً بابي العباس السفّاح, وخالد بن صفوان, وفي مقدمة تلك الفضائل صلة القرابة من رسول الله (ﷺ), فضلاً عن السابقة في الإسلام وخيرُ من يمثّلها الخلفاءُ الراشدون أبو بكرٍ, وعمرُ (رضي الله عنه), زيادةً على فضيلةِ العلم بكتاب الله والسّنّةِ النبويّةِ وخيرُ من مثّلها ابنُ عبّاس, والعلماءُ المسلمون من مضر, وكذلك فضيلةُ الإيمان, والتّصديق بما جاء به الدينُ الإسلاميُّ الحنيف, فضلاً عن فصاحة اللّغة العربيّةِ ومنها لغة مضر ولغة قريش التي هي لغةُ القرآنِ فزادها ذلك ميزة وتشريفا, وكلُّ هذه الفضائلِ وغيرها إنماز بها الفرعُ المضريُّ على الفرعِ اليمنيّ الموسوم بالضّعةِ وخمول الشأن فهم الذين ملكتهم امرأةٌ , واشتغلوا بالمهن الوضيعة, وقد وظّف ابنُ صفوان النصوصَ اللغويّةَ والقرآنيّةَ الّتي دعمتْ موقفَهُ وأنجحت خطابَهُ الفخريّ وحطّتْ من شأن المقابل وأضعفت قوة الحجاج لديه وحقّقت الفوزَ عليه

تقديم

عرفَ العربُ النّثر الفنيّ منذ عصر ما قبل الإسلام فقد كان لغة التخاطب والتفاهم بين أفراد الأمّة في شتىّ الشؤون الحياتيّةِ، وكان لغةَ المحافل والنوادي والخطب العامّة والخاصّة ولغةَ فضّ المنازعاتِ بين قبائل العرب، وبعد بزوغ فجر الإسلام ومجيء الدين الجديد ظهرت دواعٍ جديدةٌ شاركتْ في تطورِ هذا النثر وإيضاحه بشكلٍ اكبرَ من ذي قبل وزادتْ حاجةُ الدّولة العربيّةِ الإسلاميّةِ إلى أنواعٍ جديدة من النثرِ الفنّيّ ممّا أدّى إلى ظهورِها بشكلٍ جلي تلبيةً لمقتضيات الظروفِ الراهنةِ, ومن تلك الأنماطِ الّتي ظهرت وتوسّعتِ الخطبُ الدينيّةُ, والرسائلُ النثريّةُ، والمناظرات, وغيرها من الأنماطِ النثريّةِ التي لبّتْ متطلبات الحياةِ السياسيّةِ والاجتماعيّةِ والأدبيّةِ في ظلّ الدّين الإسلاميّ الحنيفِ والعصر الذي أسهمَ في بنائه، واشتهر فيه خطباءُ مصاقعُ وكُتّابٌ مترسّلون وناثرون فنيّون كان نتاجهم الفكريُّ مدعاةَ فخرٍ واعتزازٍ لأبناء الأمّةِ ممّا جعلهُ جديراً بالبحث والدراسة لبيان جوانبه الفنيّةِ والكشف عن جواهرهِ المكنونّةِ لنفض الغبارِ عن الدّور الحقيقيّ لأدباء ذلك العصر وبيان أثرهم وتأثيرهم 0

وكانت الخطابةُ الحفليّةُ [1], ومنها خطبُ المفاخرات قد اشتهرتْ وعُرفتْ من بين الفنونِ الخطابيّةِ وتوافرَ لها جملةٌ من العواملِ التي هيأتها إلى دخول سبيل التنافس مع أنواع الخطبِ الأخرى وكان من اشدِّ تلك العواملِ تأثيراً في ذلك ظاهرة المحافلِ والوفودِ الّتي كثُرتْ في ذلك العصرِ، مع ظهورِ الفتن والصراعات، ووجودِ الخصومات التي اتّخذتْ من الخطابةِ وقوداً لإلهابِ نارها المستعرة، فضلاً عن عودة المناظراتِ والمفاخراتِ إلى السّاحة الأدبيّةِ إذ ما تزالُ الطبيعةُ العربيّةُ تميلُ إلى التّفاخرِ والاعتزازِ بالنّفسِ والتباهي بشرف الأحساب وعلو المكانة والتّغني بالأفعالِ المجيدةِ والمناقبِ الحميدةِ على الرغم من أنّ الإسلامَ الحنيفَ قد نهى عن التفاخرِ والتعالي والعصبيّةِ الجاهليّةِ وجعلَ القيمةَ الحقيقيّةَ للإنسانِ تتمثّلُ بالتّقوى والعملِ الصّالح, وبعد وقوفنا على أعلامِ النّثرِ في العصرِ الإسلاميّ واستقصائنا لجوانبَ من نتاجهم وفنونِهم النثريّةِ, كانتْ لنا وقفةٌ

مع أحدِهم الذي تميّز بشخصيةٍ مؤثرةٍ كونهُ خطيباً مصقعاً ومتكلّماً بليغا وأديباً مبدعاً أثبتَ حضورهُ الواضحَ في مجال النثر الفنّيّ الأدبيّ وكان المفاخرَ البارعَ الذي حقّقَ الفوز والغلبةَ على من كانوا يفاخرونه ، ذلك الأديبُ (خالد بن صفوان الاهتمي المنقري التميمي)[2], الذي تشهدُ له مجالسُ الخلفاء من بني أميّة وبني العبّاس بالتّقدم والسبق في ميدان الخطابِ الفخريّ الذي يعتمدُ على الحجّةِ والمنطق السليم, ومن أشهر تلك المجالسِ مجلسِ الخليفةِ العباسي أبي العبّاس السفّاح الذي حدثت فيه المفاخرةُ والّتي حقّق فيها خالدُ الفوزَ والغلبةَ على مفاخرهِ لما يمتلكُهُ من حضورِ البديهةِ وقوّة العارضةِ والقدرة على المحاججة وعلوِّ البيان .

المُفاخرةُ مفهوماً :-

اهتَمَ العربيُّ بالفخرِ وعدّهُ من أهمّ مكوناتِ شخصيتِهِ وتفـرّدِهِ وتميُّـزُه عـن الآخرين, واستعملهُ الشعراءُ في شعرهم والخطباءُ في خطـبهم وأصـبحتْ لـهُ أعرافٌ وسياقاتٌ أسهمت في نضوجِ المفاخرةِ الّتي عُرّفت بأنّها" المسـابقة فـي ميدان الافتخار وأخذِ كلٍّ من المتفاخرين في نصرةِ مذهبه وتحقيقِ مطلبه، بأنواعِ الحُجج والاستدلالات، وإقامة البراهين والإمارات، وما يتوجّبُ على ذلـك مـن الأسئلةِ والاعتراضات"[3]، والمفاخرةُ على وزن مفاعلةٍ وهذا الوزن يدلُّ علـى المشاركةِ، وأُخذتْ من فاخرَ فلانٌ فلاناً، وفي هذه المفـاخرة يـذكرُ كـلٌّ مـن المُتفاخِرَين من المزايا والصفات ما يظنُّ إنّهُ يتفوقُ به على صاحبهِ[4]، والفخـرُ" التطاولُ على النّاس بتعديد المناقب "[5], وفي نظرة عجلـى إلـى طـابع هـذه المفاخراتُ يتبينُ منها أنّ:" يكونَ الرجلُ ذا بيان ولسنٍ وحضورِ بديهةٍ، ونهوضِ حجّةٍ وقدرةٍ على الغلب في الخصامِ، ومقارعةِ الاقرام فـي ميـادين البيـان"[6], وللمفاخرةِ وسائل حجاجية متنوعة, إذ تتقابل الحجج, والأدلّة والموازنة بينها قصد الغلبة والسبق.

وللمفاخراتِ والمنافراتِ سيرةٌ عريقةٌ تمتّدُ إلى العصر الجاهليّ إذ كانتْ موجودةً عند العرب وتقومُ على المباهات بالأحساب، ومكارم الأخلاق, وشرف المنزلة، وسمو المكانة[7], وعلى الرغم من أنّ الدين الإسلاميّ الحنيف قد نهى عن تلك المفاخراتِ، وجعلَ قوامَ التّفاضلِ بما يقومُ به الإنسانُ من تقوى الله جلّ وعلا وما يؤديهِ من الأعمالِ الصالحةِ انطلاقاً من قوله تعالى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[8]، إلاَ إنّ هذه المفاخراتِ عادتْ إلى السّاحة الأدبيّةِ مرةً أخرى استجابةً لمتطلبات الظروف السياسيّةِ والاجتماعيّةِ وما انبثقَ عنها من ظهور مفاخراتٍ يتسمُ طابعُها بالصياغةِ العلميّةِ الاجتماعيّةِ منطلقاً بها المتكلّمُ من أرضيةِ الواقعِ المعاشِ محاولاً من خلالها تعزيزَ مكانتِهِ الاجتماعيّةِ، ودعمَ موقفَهُ أمام الخصم[9]، فكانتْ تلبيةً لمتطلباتٍ مرحليّةٍ أملتها صورةُ الحياةِ العربيّةِ آنذاك .

إضاءة :-

ولجَ خالدُ بن صفوان ميدانَ المفاخراتِ في مجالسِ الخلفاءِ لما عُرفَ عنه من قوّةٍ في المجادلةِ ومقارعةِ الخصومِ بطلاقةِ اللّسان, ومقابلة الحجّة بالحجّةِ، وعلو البيان، ولاسيما في مفاخرته في مجلسِ أبي العبّاس الخليفةِ العبّاسيّ الأول الذي أثبتَ فيها خالد قدرتَهُ الفائقةَ بالغلبة وإفحام المقابل من خلال تمكّنهِ من إدارة الاسلوب الخطابيّ الفخريّ، من خلال المفاخرة التي جرتْ بينه وبين إبراهيم بن مخرمةَ الكنديّ[10] في مجلس السفّاح إذ فخر الكنديّ بأهل اليمن الذين منهم أخوال السفّاح على مضر الذين منهم أميرُ المؤمنين السفّاح .

المفاخرةُ بناءً وتحليلاً

قال ابن مخرمةَ في مجلس الخليفة مشيداً بأهل اليمن ومثنياً عليهم:" إنّ أخوالك همُ النّاسُ وهمُ العربُ الأولى وهم الذين دانتْ لهم الدّنيا, وكانتْ لهم اليدُ العليا توارثوا الرياسةَ كابراً عن كابرٍ وآخراً عن أول، يلبسُ آخرهم سرابيلَ أولهم يعرفون ببيتِ المجد ومآثر الحمد منهمُ النعمانانِ والمنذرانِ والقابوسان[11]

000 ومنهم ملوكُ التيجان وكماةُ الفرسان, ليس من بطلٍ عظيمٍ خطبه, ولا طرفٍ كريم أثره, ولا من فرسٍ رائعٍ أو سيفٍ قاطعٍ, أو درّة مكنونةٍ, أو درعٍ حصينةٍ إلاّ وهم أربابُها وأصحابُها إنْ حلّ ضيفٌ أكرموا, وإن سُئلوا انعموا 000 فهم العربُ العاربةُ, وسائرُ النّاس المتعرّبة "[12]، فاغتمَّ السفاحُ وطلبَ من خالد أنْ يردَّ على الكنديّ فقال خالدُ:" **خاب المتكلّم, وأخطأ المقتحم, ولقد قال بغير علمٍ، ونطقَ بغيرِ صوابٍ إذ فخرَ على مضرٍ ومنهمْ رسولُ الله (ﷺ) والخلفاءُ من أهل بيته** .."[13], فجاءتْ هذه الخطبةُ معارضةً لخطبةِ إبراهيمِ بن مخرمةَ وقد أحسن خالد بن صفوان الاستهلالَ وأجادَ فيه, فهو لمْ يبدأْ بالتحميدِ كما معروف في سننِ الخطباءِ وذلك لسببين الأول: إنّ الخطبةِ كانت استجابةً للحظة آنيةٍ انفعاليةٍ ولمْ تكنْ معدّةً مسبقاً بلْ كانتْ ارتجاليةً شفويةً تلبيةً لداعي الخليفةِ، والسببُ الآخرُ: إنّ المقامَ لم يكن مناسباً, لأنّ البدءَ بالتحميدِ عندما تكونُ النّفوسُ هادئةً مطمئنةً تتوقّعُ ما يُقالُ، وهنا كانتْ مشحونةً بالغضبِ والتعصُّبِ الشديدِ والرغبة في النيلِ من المقابلِ، فبدأ الخطبةَ بالفعليين الماضيين (خاب, وأخطأ) ليُحقّقَ غرضين الأول: لإيقاعِ الأمر موقع الشيء المتحقق الوقوعِ وذلك لثقته بنفسه، والقدرة على ردّ الخصم وإبطال ادعائهِ وامتلاك أسبابِ الفوزِ عليه وإقامةِ الحجّة وهذا ما تتطلّبُهُ طبيعةُ الموقفِ الخطابيّ، والغرضُ الآخرُ: هو تصويرُ حالةَ الغضبِ الّتي أصابتِ الخليفةَ, وخالدَ بنَ صفوان والرّغبةِ في النيلِ لكبريائهما والدّفاعِ عن المكانة العاليةِ التي تتميّزُ بها القبائلُ المضريّةُ على سائرِ القبائلِ العربيّةِ الأخرى، وبيانِ هشاشةِ الطرفِ المقابلِ وضعف حجّتهِ وخطأ تقديره للأُمورِ، وقد نجحَ في ذلك من خلالِ لغةِ التّهجمِ والتقريعِ للطرفِ المقابلِ التي أدّاها الفعلان المذكورانِ في كبتِ المقابلِ وتفنيدِ ادّعائهِ وبيانِ جهله وسوءِ تقديرهِ إذْ كيف يفخرُ على قومٍ منهمْ رسولُ اللهِ (ﷺ) ؟, والخلفاءُ الراشدون من أهلِ بيته الشريف، وخالدُ هنا يبني موقفَهُ هذا على ركيزتين الأولى: دينيّةٌ عقائديّةٌ وهي إنّ الرسول (ﷺ) بعثَهُ الله بالهدى ودينِ الحقّ والشرفُ لمن تشرّفَ به وانتسبَ إليه، والركيزةُ الأخرى: هي

الاتكاءُ على المكانةِ الاجتماعيّةِ العاليةِ للخليفة بما يمثّلُهُ من سلطةٍ دينيّةٍ وسياسيّةٍ واجتماعيّةٍ بعدِّهِ الشخصِ المسؤول عن إقامةِ شرعِ اللهِ تعالى بعد الرسول (ﷺ), وقد أدّى السجعُ في قوله (المتكلّم – المقتحم)، و كذلك التوازنُ في قولِه (قال بغير علمٍ– نطق بغير صوابٍ) إلى إعطاء الكلام قوة تأثيريّة إقناعيّة من خلالِ تصويرِ حالةِ المقابلِ ووصفهِ بالجهلِ وعدمِ الدّراية, ما أصابَهُ بالإحباط والخذلان, وجمالاً من النّاحيةِ الفنيّةِ، داعماً رأيه بالتّدرجِ في أُسلوبِه الخطابيّ عبر تنقلاتٍ محسوبةٍ داخل بنيةِ النّصّ فيقولُ:" **وما أهل اليمن– أصلح اللهُ أمير المؤمنين – إلاّ دابغُ جلدٍ, أو سائسُ قردٍ أو حائكُ بردٍ، غلبَهم الهُدْهُدُ، وغرَتْهم الجردُ، وملكتْهم أمُّ ولد**"[14], فيسخّرُ اللّغةَ هنا لتعزيزِ موقفهِ من خلالِ توظيفِ أُسلوبِ القصرِ المتمثّل بـــ (ما) النافيةِ, و(إلاّ) الإستثنائيّةِ, وهو ما يسمّيهِ النحاةُ بالاستثناءِ المفرّغِ لقصرِه الصفاتِ الّتي وصفَهم بها عليهم وخصّهمْ بها دون غيرهم[15], ثم يُقحمُ الجملةَ الدّعائيّةِ الاعتراضيّةَ (أصلح اللهُ أميرَ المؤمنين) للتوكيدِ في داخل الجملة الاستثنائيّةِ ليحقّقَ اللّياقَةَ في أدبِ المخاطبةِ أمام الأميرِ وبين المتكلّم والمخاطبِ لكسبِ رضا المخاطبين من جهةٍ وللتعبير عن تقاليد المخاطبةِ وأدواتِ التفاعلِ الاجتماعيّ من جهةٍ أخرى, فالدّعاءُ من حيثياتِ العملِ الأدبيّ ولهُ وظيفةٌ بنائيّةٌ، ووظيفةٌ تدخلُ في صياغةِ المعنى من وجهٍ آخر[16]، متخذاً من أُسلوب الاستهزاءِ وسيلةً في الحطِّ من المقابلِ وتقريعِهِ بوصفِهِ بصفاتٍ مذمومةٍ عند العرب بقولِهِ (دابغُ جلد, وسائسُ قرد، وحائكُ برد) فجعلَ من هذهِ الأعمالِ المشينةِ التي تُضعفُ موقفَ المقابلِ وتقلّلُ من مكانته الاجتماعيّةِ طريقاً إلى الانتصارِ في ملفوظِهِ القوليّ وإفحامِ الخصمِ بالحجّةِ المتدرجةِ الّتي رفدَ لها ثلاث مهنٍ كانتِ العربُ تزري بأصحابِها ولا تُقدّرُها في المجتمع وخصَّ بها أهلَ اليمنِ (وما أهلُ اليمن...)، وقد عمد إلى توظيفِ صيغةِ اسمِ الفاعل (دابغ – سائس – حائك) لإثباتِ تلك الصفاتِ عليهم وملازمتها لهمْ[17]، وتبعَ ذلك باستعمالِ أُسلوبِ الإختصارِ والتكثيفِ عبر اختزالِ المواقفِ بالتراكيب، إذْ أشارَ في قولِهِ: (غلبهم

الهدهد ... وملكتهم أُمُّ ولدٍ ...) إلى قصّةٍ قديمةٍ أوردها القرآنُ الكريمُ وهي قصّةُ النبيّ سليمان عليه السلام والهُدْهُد مع بلقيس ملكة سبأ الّتي كانتْ تحكمُ اليمن قولُهُ تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[18]، وهنا تكمنُ براعةُ ابنِ صفوان وسعةُ خياله وحضورِ بديهته وإمكاناتِه الكبيرةِ في القدرة على استحضارِ القصّةِ القرآنيّةِ واستدعاءِ الدّليل النّقليّ، لإثباتِ دعواه وتقليلِ مكانةِ خصمه وإقامة الحُجّةِ عليه وقد نجح في توظيف المفهوم النصّي (القرآن الكريم) من خلال الاقتباس في توظيف وتجسيد الحادثة بما يُسهمُ في رفد المفهوم الكلامي, وقد وشَحَ كلامَه بالازدواج ممّا أدّى إلى إظهارِ مواطنِ الجمال في النصّ إذ" لا يحسنُ منثورُ الكلامِ ولا يحلو حتّى يكون مزدوجاً ولا نكادُ نجدُ لبليغٍ كلاماً يخلو من الازدواج "[19] فضلاً عن السجعِ القصيرِ الذي ختم به عباراتِه في قولِه (دابغ جلد – سائس قرد – حائك برد) وكان لاستمرارِ الجمل المزدوجةِ والمسجوعةِ بحرفِ الدّال, فاعليةٌ في تراكيبه التي بدأها بالأفعال (غَلبَ – غرّ – ملكَ) الماضيّةِ، فادّى الازدواجُ والسجعُ [20] دورهُ في منحِ النصِّ وزناً عذباً وإيقاعاً موسيقياً جميلاً حتّى ليَبدوُ إنّه اقربُ إلى الشعرِ منهُ إلى النّثرِ، كما إنّ أحرف القلقلةِ (القافُ، والباءُ, والجيمُ، والدّالُ) التي بثّها في النّصّ كان لها الأثرُ البالغُ في إعطاء النصِّ قوةً حركيّةً إيقاعيّةً لبيانِ شدّة التّأثيرِ في نفس المتلقي إذ استدعى مقام المفاخرة أحرف القلقلة لأنّ الجوَ العام مشحونٌ والمقامُ مقامُ مناضرةٍ, وفخر فلا بُدّ من الحرف الانفجاري في الرد على المقابل، والايقاع في النص نوعان الاول: إيقاع صوتي من خلال توظيف اصوات القلقلة, والثاني: ايقاع نغمي من خلال (السجع, والازدواج), ثمَّ يعمدُ بعد ذلك إلى إتّباعِ الصيغة الحواريّةِ عبر انسجام كلامه

وترابطِهِ للوصول إلى بنية كلاميّةٍ ثابتةٍ[21]، فيقولُ:" **قومٌ – والله يا أمير المؤمنين – مالهم السنةٌ فصيحةٌ، ولا لغةٌ صحيحةٌ, ولا حُجّة تدلُّ على كتاب، ولا يعرفُ بها الصوابُ، وإنّهم منّا لبين إحدى الخُلتين إن جازوا قصدنا أُكلوا، وإنْ حادوا عن حكمنا قُتلوا** "[22]، فبدأ كلامَهُ بالنّكرةِ – قومٌ – وما فيها من الاستهزاء بهم والتجاهلِ لهم وإنكار شأنهم[23]، ثم اتبع ذلك بأُسلوب القسم ليدُلَّ على القوةِ والقدرةِ والتأكيدِ، فيقسمُ الحالف ليؤكّد شيئاً يخبر عنه عند إصراره وعزمه على إلزامِ النّفسِ أمراً أو شيئاً معيناً[24]، ثمَّ يتبعُ القسم بالنداء ليطلبَ إقبالَ المدعو على الدّاعي، وقد استعمل حرف النداء (يا) للتأكيدِ بانّ الخطابَ الآتي معنيٌ به جداً، وقد خَصّ أميرَ المؤمنين بالنداءِ والخطابِ بوصفه إمامَ الناسِ وقدوتهم[25]، ثمّ يعمدُ بعد ذلك إلى إيرادِ الجمل الاسميّةِ ليبينَ حال الخصمِ وما يتصفُ به من صفاتٍ تؤكدُ ضعته وصغر شأنِه فيطعنُ في فصاحتهم ولغتهم ويدحضُ حجّتهم، ثمّ ينتقلُ إلى اسلوب الشرط بصيغه وأدواته الدّالةِ على المستقبل بدلالة الماضي في قوله:(إنْ جازوا أُكلوا...وإنْ حادوا قُتلوا), ليُعمِل الأفعال الماضيةَ بدلالة المستقبل محقّقاً عدداً من العلاقات التي ترتبطُ الواحدةُ منها بالأُخرى معتمداً على السببِ والنتيجةِ بعدّهما أداتي الترابط وأساسه، و" القصد من مجيء الشرط ماضياً وان كان معناهُ الاستقبال إنزالَ غير المتيقن منزلةَ المتيقن، وغيرَ الواقعِ منزلةَ الواقع "[26]، وقد كان لتكثيف الصياغةِ عبر تكرار أداةِ الشرط دورٌ في بلورة الفكرةِ التي رامَ إيصالَها إلى المستقبل وإظهارها، فبيّن أنّ جوابَ الشرط متيقنُ الوجوب متحقّقُ الحصول لثقته بمضاءِ حجته وثباتِ قصده، فضلاً عن أنّ هذه الأفعالَ (أكلوا، قتلوا) قد أوقعتْ عملها في نفسِ المتلقي بما تحمله من معاني الرهبةِ من الموتِ والقتل علاوةً على أنّ انتهاءَها بحرف المدِّ (الواو) قد أعطاها قوةَ لفظيةً تأثيريّةً، كما أنّ استعمالَ ابن صفوان الاسمَ مضافاً إلى ضميرِ المتكلمين (نا) في قولة (قصدنا، حكمنا) ليؤكِدَ السبقَ والأولويّةَ والتفرّدَ بالحكم والأفضليّةَ لمضر الذين منهم رسول الله (ﷺ)، على أهلِ

اليمن الذين منهم إبراهيمُ بن مخرمةَ، وقد حقّقتِ الأسجاعُ التي ختم بها خالد بن صفوان فواصله (مالهم السنة فصيحةٌ – ولا لغةٌ صحيحةٌ – ولا حُجّةٌ تدلُّ على كتاب – ولا يعرفُ بها الصوابُ) الأثر الكبيرَ في إيضاح الصفات المذمومة للطرف المقابل والتي تشيرُ إلى إيغالهم في الجهل والتيه، وقد أدّى التدرّجُ في الإيقاعِ الصوتيّ من النغمةَ الإيقاعيّةَ القصيرةَ التاء المسبوقة بحرف المد الياء (صحيحة – فصيحة) إلى النغمةِ الإيقاعيّةِ الأطول (كتاب – جواب) والناتجةِ عن مدّ حرفِ الألف مداً يناسبُ القوّةَ الصوتيّةَ لحرفِ الباء؛ لأنّهُ من حروف القلقلةِ، ثمّ إلى النغمةِ الإيقاعيّةِ الأطول الناتجةِ عن حرف الألفِ المطلقة (قصدنا – حكمنا)، ثمّ الواو الذي ختم به عباراتِه الأخيرةِ (أكلوا – قتلوا) إلى بيان التّوافق الكبير بين الألفاظ والمعاني إنّ" الألفاظ خدم المعاني "[27].

وقد أظهرتِ القدرةُ العالية لابنِ صفوان على حسن التصرّف بمفردات اللّغة بما يظهرُ القوّةَ الخطابيّةِ للنّصّ وبيان الملامح الجماليّةِ فيه، غير متجاهلين الإيقاعَ الصوتيَّ الموسيقيّ الناتجِ عن تناغمِ الألفاظ واتساقها، إذ ينتقلُ بعد ذلك إلى لغةِ التّهكم بالطّرف المقابلِ من خلال استخدامه لإسلوب الاستفهام: " **أتفخرُ بالفرس الرائع، والسيف القاطع، والدرع الحصينةِ, والدرّةِ المكنونةِ ؟ ألآ وإنّي أفخر – بمحمدٍ (ﷺ) – خير الأنام ... فالمنّة من الله عليكم، إذْ اللهُ المرتضى، ولنا السؤددّ والعلى، ولنا الشرفُ القديمُ والحسبُ الصميم ... ولنا البيتُ المعمورُ، والسقفُ المرفوعُ, والبحرُ المسجورُ ...، ولنا زمزمُ وبطحاؤها وصحراؤها وأعلامُها ومنابُرها وسقايتُها, فهلْ يعدلُنا عادلٌ, أو يبلغ مدحتنا قائل** "[28].

يقومُ أُسلوبُ الخطابِ الفخريّ لخالد بن صفوان هنا على الاستفهام الإنكاريّ (أتفخر ...؟) أداةً لتوبيخ المخاطب وتقريعه[29]، من خلال إحداثِ ردةِ فعلٍ نفسيّةٍ عند المقابل بوساطة الأجوبةِ والحجج المسكتةِ والمفحمة وجعلِه يفكّرُ في موقفه هذا محاولاً إيجاد إجابةٍ لهذا السؤال لكنّه يقف مندهشا لا يحيرُ جواباً أولا,

وثانياً بيان عناصر القوّة لدى المتكلّم (الخطيب) والثقة التي تملأُ نفسه[30] بنهوضِ حجته وغلبته على خصمه، ولا يخلو هذا الاستفهامُ من التعجّبِ الذي غايته التنبيه إلى فداحة القولِ الذي تكلَم به إبراهيم بن مخرمة, وجسامة خطأه, وقد أدّتْ أداةُ الاستفهام (الهمزة) التصوريّةُ إلى صياغةَ الاستفهام بأُسلوبٍ إنكاريّ استفزازي يبيّنُ مدى التناقضِ والفارق الكبيرِ في ميدان التقابل والمفاضلةِ والمفاخرةِ بين ما يفخرُ به إبراهيمُ ابنُ مخرمةَ (الفرسُ الرائعُ، السيفُ القاطعُ، والدرع الحصينةُ, والدّرة المكنونة), وبين ما يفخر به خالد بن صفوان (ألا وإني أفخر بمحمدٍ (ﷺ) خير الأنام)، إذْ يجعلُ فخرَهُ ناهضاً على الحُجّة الدّامغة التي مثّلت قمّةَ الفخرِ ومنتهى الشرفِ وذلك بالانتماء إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين محمدٍ (ﷺ)، وقد أعطى اسم التفضيل (خير الأنام) المفاخرةَ قوةً تأثيريّةً حجاجيّةً تفاضليّةً عاليةً لما يفخرُ به ابن صفوان على ما يفخر به خصمه, إذْ دلّ اسمُ التفضيل على تناهي علوِ مكانةِ المفضّلِ على المفضّلِ عليه وكمالِه في المفاضلةِ والتفضيل[31]، ثمّ ينتقلُ ابنُ صفوان إلى عنصرٍ آخر في فخره رابطاً بالرّكنِ الذي قبلَهُ وهو السابقةُ في الإسلام التي تميز فيها بالانتماء إلى الفرعِ العربيّ الذي منه النبي (ﷺ) على فروع العربِ الأخرى وقبائلها ومنهم أهلُ اليمن أجداد إبراهيمِ بن مخرمةَ الذين يكفيهم ضعةً إنّهم كانوا كفاراً يعبدون الشمس، فمنّ اللهُ تعالى ورسولُهُ (ﷺ) بالإسلام وهداهم للإيمانِ (جهدكَ من ذكرتَ ممن افتخرتَ به, فالمنّةُ من الله عليكم), ثمُّ ينتقلُ إلى أُسلوب الجملِ القصيرة والمركّزة ذاتِ السجعِ الجميل المتعدد داخل الخطبة معطياً لها قوةً شديدةً جلباً للانتباه وتقريراً في نفس السّامعِ، علاوةً على إنّهُ يشيرُ إلى مرجعيّةٍ قديمةٍ تبينُ مكانةَ الفرعِ الذي تنتمي إليهِ قبيلةِ قريش التي ينحدرُ منها الخليفةُ السفّاح، تلك المكانةّ التي تميّزتْ بها قريشٌ من دون غيرها من القبائلِ العربيّةِ والّتي قضتْ لها بالسّبق والأفضليّةِ على سواها من القبائل (لنا الشرفُ القديمُ، والحسبُ الصميمُ،... ولنا البيتُ المعمورُ, والسقفُ المرفوعُ, والبحرُ المسجورُ ...، ولنا زمزمُ[32] ... ومنابرُها وسقايتُها[33]), واتخذ

ابنُ صفوان الأسلوبَ الإخباريّ دعامةً لإقامة خطابة الفخريّ من خلالِ بيانِ ما تتّصفُ به قريشُ من صفات الشرف والريّادةِ بادئا كلامَهُ بالخبرِ المقدّمِ شبه الجملةِ (لنا) على المبتدأ وذلك لإفادةِ الاختصاصِ أي إنّ قريشاً من مضر المختصّةِ بهذه الصفات دون غيرهم من العرب ولا يُشركُهم فيها غيرُهم[34]، وقد أضفتِ الفواصلُ الّتي ختمَ بها عباراتِه (قديم – صميم – معمور – مسجور – منابرها – سقايتها) على النصِّ تناغماً صوتياً كان له الأثرُ البالغُ في إظهارِ ملامحِ القوّةِ والجمال في الأداءِ، فضلاً عن الاقتباس والتضمين الجميل الذي اكتنف النص (البيت المعمور, السقف المرفوع، البحر المسجور)[35], ثمّ ينتقلُ إلى أُسلوبٍ خطابيً يمتازُ بالشدّةِ والقوّةِ والتركيزِ باستعماله أداةَ الاستفهامِ (هل) التصديقيّةَ، فهي آكدُ وأقوى من الهمزةِ وهي اشدُّ قوةً في الاستفهام[36], وبموجب هذه القوّة التصديقيّةِ اكتسبَ موقفُ خالد بن صفوان قوةً أمام خصمه ونجاحاً في وضعه بموقف الإقرارِ بتفوّق خالد عليه, وخاتماً عبارتَه الحجاجيةَ (فهل يعدلنا عادل, أو يبلغ مدحتنا قائل) جاعلاً منها تتويجاً لمآل المفاخرة وحكماً لها، إذ أفادتْ (هل) هنا معنى التهويل لقوّةِ المتكلّم والتعظيم لمكانته[37], أمام ضعف قوّةِ الخصم وهبوط مكانته, وقد أدتِ الأفعالُ المضارعةُ الدّالةُ على الحالِ (يعدلُ – يبلغُ) مع اسمِ الفاعل الدّالّ على الاستقبال (عادل – قائل) إلى التفاعلِ بين الزّمنِ الحاضر وزمنِ المستقبل مؤدياً الاستمرارية في الفضلِ والأسبقيّةِ، معضداً ذلك بحرف الدّال الذي هو من حروفِ القلقلةِ في كلمة (عادل)، وحرف الهمزة الذي هو من حروفِ الإظهارِ في كلمةِ (قائل) اللّذان منحا النصَّ قوّةً صوتيّةً أسهمتْ في تعزيزِ القوّةِ الخطابيّةِ لهُ، ثمّ يعمدُ ابن صفوان إلى الاسلوب الخبريّ ليُقيمَ عليه بعضاً من منافذِهِ الحجاجيّةِ التي يبغي من ورائها زيادةَ التفضيلِ في الفضائلِ والفضلاءِ ومن قوّةِ التحديّ والقهرِ لغيرهِ قائلاً:" **...ومنّا ابنُ عبّاس**[38] **عالمُ الناس، الطيبةُ أخبارُه، المتبوعةُ آثارهُ ... ومنّا الصدّيقُ ومنّا الفاروقُ، ومنّا العلماءُ الفقهاءُ من زاحمنا زحمناه, ومن فاخرنا فخرناهُ، ومن بدّلّ سنتنا قتلناهُ**

"[39], إذْ يتّخذُ ابنُ صفوان من الاسلوب الخبريّ اساساً لإقامة معياره التفاضليّ بانياً فخرَهُ على أنواعٍ من الفضائلِ نحدّدُها بالاتي:-

الفضيلةُ الأولى: فضيلةُ العلمِ والقرابةِ من الرسول (ﷺ) التي تتجلّى في شخص ابنِ عبّاس فهو اعلمُ هذه الأمّةِ بكتابِها وسنّةِ نبيها .

والفضيلةُ الثانيةُ: فضيلةُ السبق بالإيمانِ والتصديق بالنبي (ﷺ) والّتي تجلّتْ في أحسن صورها في شخص أبي بكرٍ (رضي الله عنه).

الفضيلةُ الثالثةُ: فضيلةُ الجهرِ بالحقّ والحكمِ به وعدمِ الخشيةِ من إحقاقه وإقامتهِ كما أمرَ اللهُ تعالى، وخيرُ من اشتهر بهذا بعد النبيّ (ﷺ) الفاروقُ عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه).

الفضيلةُ الرّابعةُ: فضيلةُ التفقه في الدّين والمعرفة بأحكام شرع الله عزَ وجل وسنةِ نبيه وتبصيرِ المسلمين بحسن تطبيقهما, وهو ما مثله العلماء الفقهاء من هذه الأمّة، وجميعُ هذه الفضائلِ رجّحتْ كفّةَ ابنِ صفوان على كفّةِ خصمه، وقد حقق اسلوبُ الشرط متمثلاً بالأداةِ (من) مع فعلها وجوابها قوّةً لموقفِ المتكلم مقابل إضعاف لدعوى المخاطب, وقد جاء فعلا الشرط والجواب بصيغة الماضي وأريد بهما المستقبل[40]، فضلاً عن أنّ تكرار الشرط بصياغةٍ تكثيفيّةِ (من فاخرنا – فخرناه، من زاحمنا – زحمناه، من بذّل سنتنا – قتلناه), قد عمل على تعزيز موقف المتكلّم وإظهار قوّتِهِ في التّحدي والمواجهة والتمكّن من النيل من الخصم والفوز عليه, وقد أعطتْ صياغةُ الجمل الفعليّةِ المتكوّنَةِ من (الفعل + الفاعل + المفعول به) في تركيبٍ واحدٍ, (زحمناه – فخرناه – قتلناه), النصّ قوّةً إضافيةً متدرجة تمثلتْ بأُسلوب التهديد والوعيد ولغة التحدّيّ التي نجحَ فيها ابن صفوان في التصرّف لخدمة الموقف الخطابيّ الفخريّ الحازم الذي يتطلّبُ صياغةً قويّةً ومؤثرةً يكون لها الوقعُ المباشرُ على السامع والمتلقيّ.

وأفاد من التراكيب المتوازنة القصيرة والمتجانسةِ ذاتَ الفاصلةِ المتّفقةِ في الضمائر (نا المتكلمين, وهاء الغائبين) ازدواجاً في الكلام بين الفقرات (من

زاحمنا زحمناه) (من فاخرنا فخرناه), (من بدّل سنتنا قتلناه), إذ حقّقَ التوافقُ بين الوحدات اللغويّةِ المتوازنة إلى اتفاق الجرس النغمي الذي أسهم في تقويةِ الإيقاعِ الصوتيّ لدى المتلقي وزاد تلك العبارات قوةً بما تحملُهُ من دلالةٍ عميقةٍ، أجادَ فيها ابنُ صفوان في توظيفِ السجع (عباس – ناس)، والتجنيس (زاحمنا– زحمناه، فاخرنا – فخرناه) لخدمةِ المعنى الذي قصده وتقويتِهِ وتعزيزه, إذْ" لا يوجدُ تجنيسٌ مقبولٌ, ولا سجعٌ حسنٌ, إلاَ أنْ يكونَ مقوياً للمعنى مقيماً له معززاً من شأنه "[41]، وأفادتِ التراكيبُ من حرف الألف الممدودةِ بمقدارٍ يتناسبُ مع بعد المخرج الصوتيّ للألف عن المخرج الصوتي للهاء التي جاءت بعده (زحمناه، فخرناه, قتلناه) من القوّةِ الصوتيّةُ التي كان لها أوقعُ الأثرِ في نفس المقابل (الخصم) وانهيار معنوياته، علاوةً على ما تضمّنتهُ من معنى الشدّة والزحم والقتل الذي يتناسبُ مع لغة الزجر والوعيد التي وجّهها إلى الخصم وهو في مجلس الخليفةِ صاحب الأمر والنهي .

ثمّ يعمدُ ابنُ صفوان إلى وسيلة جديدة يدعم بها فخرهُ عن طريق الاستشهاد باللّغة، بعدّها وسيلةً للأخبار بما هو قاطع في الدّلالةِ على غلبة رأيه وصحةِ وجهة نظره، والاحتجاجِ بإقامة البراهين[42], من نصوصِ اللّغة ومفرداتها لدعم موقفه وتثبيت أدلتهِ، فيتوجَهُ إلى خصمه قائلاً: " **كيفَ علمك بلغات قومك ؟, قال: إنّي بها عالمٌ, قال: فاخبرني عنِ الشناتر, قال: الأصابعُ, قال: فاخبرني عن الصنّارتين، قال: الأذنان، قال: فاخبرني عن الجحمتين، قال: العينان، قال فاخبرني عن الميزم, قال: السّنّ, قال: فاخبرني عن الزّبّ, قال: اللّحيةُ, قال: فاخبرني عن الفتحةِ, قال: الرّاحةُ, قال: فاخبرني عن الكتعِ, قال: الذئبُ, قال: أفتؤمن بكتابِ اللهِ ؟ قال: نعمْ, قال: فكيفَ تزعمُ أنّكم العربُ الأولى, وأنَا المتعرَبة, والله – جلّ ثناؤه – يقولُ في كتابه:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾**[43] **وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾**[44]**، وقال عزّ ذكرهُ :﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ**

﴿ءَاذَانِهِمْ﴾[45]، ولم يقل: جعلوا شناترهم في صنانيرهم, وقال جلَ ثناؤه: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾[46] ولمْ يقلْ الجحمة بالجحمة، وقال عزَ وجلَ ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ [47]، ولم يقل الميزم بالميزم، وقال تبارك اسمه:﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾[48], ولم يقل: لا تأخذني بزنِي, ولا بفتحتي، وقال تعالى ذكره: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[49] ولم يقل: فأكله الكتع "[50]، ينهضُ الخطابُ الحجاجي المتدرّجُ لخالد بن صفوان على أكثر من دعامة:

الدّعامةُ الأولى: الاحتجاج باللّغة وسوقها برهاناً قاطعاً في تفنيد ما يقابلها من حجج دعوى مناظره وإقامةِ أسباب الغلبة عليه، إذْ إنّ الاحتجاجَ" يُستخدَمُ غالباً في المواقف الّتي تتطلّبُ المغالبةَ والجدل بقصد التفوّق ونصرة الرأي "[51]، وهنا تتبينُ المعرفةُ الواسعةُ والدّقيقةُ لخالد بن صفوان بلغاتِ العربِ ولهجاتها، تلك المعرفةُ الّتي تنمُّ عن إمكانيةِ العالم الخبير بدقائق اللّغة وخفاياها ومعرفة عناصر الاستشهادِ بها وتوظيفِ تلك العناصر لتحقيق الغلبةِ على الخصم.

الدّعامةُ الثانيةُ: الاحتجاجُ بالقرآنِ الكريم والاقتباسِ منه, وفيه تظهرُ قدرةُ ابن صفوان في اتخاذِ النّصوص القرآنيّةِ وسيلةً للغلبةِ من خلال أثرها في نفوسِ العباد، وما أُودعَ فيها من بلاغةٍ ونظمٍ بديعٍ وحُجّةٍ داحضةٍ، إذ اتشحتْ آياتُهُ بفواصلَ تُسحرُ النّفوسُ بها وتطمئنُ للوقوفِ عليها[52]، فكلامُ الله تعالى عزَ اسمُهُ أفصحُ كلامٍ وابلغُه ويجوزُ الاستشهادُ بمتواتره وشاذّهِ[53] وقد أطبقَ النّاسُ على الاحتجاجِ به[54] و" أخرجوا به ظاهرةً للتدليل والتأكيد, وإعطاءِ المعنى الخاصّ التامّ, زيادةً على توضيحِ المبهم والتفسير "[55]، وقدّم الاستشهادُ الذي ساقه ابنُ صفوان تعضيداً لفاعليةِ الكلام وتعزيزا لحشد كُلّ الوسائل في استحضارِ تلك الآياتِ في لحظة التواصل الخطابي الحجاجيّ وتوظيفها بشكلٍ يخدمُ آليةَ الخطابِ الفخريّ الذي حقّق فيه انتصارهُ على خصمِهِ, الذي تجلّتْ فيه بديهةُ ابُن صفوان الحاضرةِ وقوةِ حفظهِ وملكتِهِ الفائقةِ في سوق البراهين والأدلّهِ بشكلٍ منطقيٍّ

وتسلسلٍ فكريٍّ أفحمَ الخصمَ وأتى على حججه عاملاً على إبطالِ دعواه وإعجابِ الحضور، فأشادَ به الجاحظُ بقوله:" فلئنْ كانَ خالد قد فكَر وتدبَر هذا الكلامَ إنّهُ لَلْرّاويةُ الحافظُ, والمؤلفُ المجيدُ, ولئنْ كان هذا شيءٌ حضره حين حرَك وبسط فما لهُ نظيرٌ في الدّنيا "[56].

بدأ ابنُ صفوان النصَّ الخطابيِّ بالاستفهام (كيفَ علمّك بلغاتِ قومك؟), وهذا استفهامٌ حقيقي يتطلّبُ جواباً من المخاطبِ وقد جاءَ (إنّي بها عالمٌ), ليكونَ هذا الجواب إقراراً من المسؤول فيكونَ حجةً عليه ليدينَ نفسَه بنفسِهِ، وقد جاء الاستفهامُ مرةً أخرى ليخرج إلى صيغة التهكّم بالمقابل[57] (كيف تزعمُ إنّكم العربُ الأولى وانّا المتعرّبة ؟)، وهذا يصبُّ في رفد التدرج في سوق الأدلةِ الاقناعيّةِ التي يتطلّبُها الخطابُ الاقناعيّ وحججه, وقد قامَ النصُّ على فضاءاتٍ حواريّةٍ متمثّلة بفعل الأمر (اخبر) الذي تمّ تكراره مراتٍ عدّةٍ ليوجد من خلال ذلك تقابلاً حركياً مبنياً على تقابل حواري بين المتلكّم والمخاطب[58] المسبوق بالفعل الماضي (قال) مفتوحَ العين ليدلَّ على تعديةِ الفعل وعلى القيام بعمل (خارجي) في انفتاحٍ من الخارج المناسبِ لانفتاحِ حركةِ العين[59]، ثمّ الفعلَ بمعنى الماضي (لمْ يقلْ)، وقد عبّر تكرارُ الفعلين (قال, لم يقل) عن ديمومةِ الحدثِ وحركته، واظهرَ نوعاً من الرضا والاستسلام, وقبول الواقع من قبل السّامع، كما إنّ هذه الأفعال التي تكررّت في فضاءات النصِّ من الماضي وصيغة الأمرِ (اخبر) إلى صيغة الماضي (قال) وصيغة الماضي المنفي (لم يقلْ) قد عملتْ على إنشاءِ علاقاتٍ بين الألفاظِ عن طريق الابتداء بالفعل الماضي ثمّ فعل الأمر ثمّ الانتقالِ إلى الفعلِ الماضي ثمّ المضارع المنفيّ, لتفعيلِ الحدث وتأكيده, ولإحداث تقابلٍ بين الأزمنة وإثارة السّامع ليتفاعلَ مع البنية النصيّة الداخليّة[60], ثمّ يتجه في نهايةِ مفاخرته إلى اسلوب الاستفهامِ الخبريّ غير الاستفهام الإنكاري, وذلك من خلالِ صيغ الاستفهام التي وجّهها إلى خصمه قائلاً:" **فأخبرني عن نبيّ الله المصطفى – (ﷺ) – أمنا أم منكم ؟ قال: بل منكم،**

قالَ فاخبرني عن كتابِ اللهِ المنزّلِ علينا أم عليكم ؟, قال: بل عليكم، قال: فاخبرني عن كتاب الله المستقبل، ألنا أم لكم, قال: بل لكم، قال فأيُّ شيءٍ يعدلُ هذه الخصال؟ "[61]، بهذه المسلماتِ يقومُ البناءُ النصيّ على مساحةٍ حواريّةٍ تمثّلُها الجملةُ الفعليّةُ (اخبرني)، وما تتطلّبُه من إجابةٍ على السؤال زائداً الصيغة الحواريّةِ التي تمثّلها الأفعال (قال – قال) التي كونت قوامَ المفاخرةِ بين خالد وخصمه اليمنيّ، التي اعتمدتْ المفاضلةَ والتفاخرَ وتقابل الحجج بسماتِ الشرفِ والسيادةِ محوراً لها, إذ أعملَ ابنُ صفوان البنيةَ الاستفهاميّةَ (أداةَ الاستفهام – الهمزة – ام المعادلة) داخلَ النصّ الخطابيّ متجهاً به صوب الفخر والمباهاتِ, رامياً من وراء أُسلوب الاستفهام الذي ساقَهُ إلى لزومِ القطعِ والتعيينِ, فالسائلُ غيرُ جاهلٍ بالحكم بل عارفٌ به لذلك وجبَ التعيينُ[62]، في سؤاله (عن نبي الله المصطفى أمنا أم منكم ؟)، قال: بل منكم, فتم تحديدُ صاحبُ الفضلِ والتميُّزِ، ولو كان جاهلاً للحكم لوجب أنْ يقول (أنبي الله المصطفى منكم ؟), وبهذا تكون الإجابةُ بالتصديق (نعم) او بخلافه (لا)، لكنّهُ صاغه صياغةً تصويريّةً كونَه عارفاً مسبقاً بوجوبِ الحكم لصالحه، ثمّ يمضي في سرد استفهامه التفاضليّ الحجاجي رامياً إلى الفخرِ والتعظيمِ من خلال تعداد المناقبِ التي تميّزُهُ عن خصمه متدرجاً في إيرادِ أدلتهِ المقنعةِ وحججه(فاخبرني عنْ كتابِ اللهِ المنزّل علينا أم عليكم)، وبعد أنْ قطع بالحجة الحكم له بالسبقّ والأفضليّةِ، ساق دليلاً آخر يؤيدُ صحةَ دعواه (فاخبرني عن كتاب الله المستقبل ألنا أم لكم), وبعد أنْ ينتهي ابنُ صفوان إيراداً لأدلتهِ ومحجّتهِ الخطابيّةِ الاقناعيّةِ الّتي حقّقتْ له الظفر والغلبة على خصمه بأُسلوبٍ قلّ نظيرهُ حقّقَ هزيمتهُ وفي ذلك يقول الجاحظُ:" لو خطبَ اليمانيُّ بلسان سحبان وائل[63] حولا كريتاً[64], ثم صُكَ بهذهِ الفقرة ما قامت له قائمةٌ "[65]، ويعودُ في ختام مفاخرته إلى اسلوب الاستفهام بصياغةٍ تخرجهُ إلى التحديّ والثّقةِ بالنّفسِ وتوكيد مكانته أمامَ خصمه وإقرارهِ بالهزيمةِ، متوجهاً إليهِ بالسؤال الآتي (فأي شيءٍ تعدل هذه الخصال ؟), فصيغةُ السؤالِ

خرجتْ إلى دلالةِ المباهاتِ والإقرارِ بالغلبةِ فلا تعدُلُ خصال العرب شيئاً من تلك الخصال التي تحلّى بها أمير المؤمنين السفَاح وخالدُ بن صفوان المضريين أمامَ اليمانيّ إبراهيمَ بنَ مخرمةَ الذي أحس بضعفه وهزيمته في مجلسٍ مخصوصٍ لهُ هيبتهُ ومجالسيه غير العاديين إذْ استغلّ ابنُ صفوان طاقتَهُ الخطابيّةَ المعروفةَ لإرضاءِ الخليفةِ والانتصارِ لهُ في مجلسه, وإلحاق الهزيمة النكراءِ بمفاخره حتّى إنّ الخليفةَ السفّاح أشفق عليه, وأمر بن صفوان بالكفّ عنهُ :" اكففْ عنه فو اللهِ ما رأيتُ غلبةً أنكر منها، واللهِ ما فرغتَ من كلامك حتّى ظننْتُ انّهُ سيعرجُ بسريري إلى السّماء "[66], وهذه المفاخرةُ هي مفاخرةٌ لأميرِ المؤمنين الذي شعر بالارتياحِ والزهو في موطنِ الفخرِ والمباهاتِ بالعزّ حتّى ظنّ (أنّهُ سيُعرجُ بسريرهِ إلى السّماءِ) كنايةً عن بلوغِ الغايةِ في الانتصارِ والانتصاف .

الخاتمة والنتائج

وتوصلنا أخيراً الى إنّ البحث ينهضُ على التقابلُ بين الطرفين والتمايز بينهما عند الفخر بسمات الشرف, على القدرةِ بحشد الأدلّة الحجاجيةِ والتقابل بينهما لإظهار الفارق في مساحة السبق والعلو والرفعة في المقال, في مقام افحام الخصوم والأكفاء بشهادة الحضور (المجلس) عندما تتحقّق الغلبةُ في مفاخرته مع ابراهيم بن مخرمة, فضلاً عن إنّ المُفاخرَ ابن صفوان سخّر مجموعةً من الوسائل الفنيةِ, والأساليب اللغوية ذات الدلالة القاطعةِ في المحاورة التي رمى من ورائها إسكات خصمه بأدلّةٍ منطقيةً، ونقلية، ولغوية في ملفوظٍ شفويٍّ إقناعيٍّ اسهم تأثيره في شعور المتلقين في المجلس, وبخّاصةٍ الخليفة, وعمل على كبت المفاخر ابن مخرمة في الوقت نفسهِ, وهذا ما دفع الجاحظ أن يشيد به ويشهد لهُ بالإعجاب والتمكّن .

هوامش البحث ومصادره ومراجعه:

(1) الخطابةُ الحفليّةُ هي" الخطابةُ التي تُلقى في المحافلِ، لتكريمٍ او تهنئةٍ او تأبينٍ": تأريخ الخطابة وأشهر خطب الرسول والصحابة، نجدة رمضان, دار المحبة, دمشق, د.ت: 16.

(2) احد فصحاء العرب, وخطبائهم, كان راويةً للأخبار خطيباً مفوهاً بليغاً, وكان يجالسُ هشام بن عبد الملك بن مروان , وخالد القسري, وكان من سمّار أبي العبّاس السفاح الخليفة العباسي الأول (ت 135ه), ينظر: معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626ه), تحقيق, إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي, ط1, بيروت، 1993م: 3/ 1231- 1236, وتاريخ الأدب العربي, كارل بروكلمان, ترجمة عبد الحليم النجّار، دار المعارف، ط 5, مصر، د , ت: 1/ 262.

(3) صبح الأعشى في صناعة الإنشا, احمد بن علي القلقشندي (ت 821ه)، تحقيق، يوسف علي الطويل, دار الفكر، ط1, دمشق, 1987م: 14/ 238-239.

(4) ينظر: الخطابة وإعداد الخطيب, عبد الجليل عبده شلبي, دار الشروق, ط2, القاهرة, 1986م: 370.

(5) كتاب التعريفات, علي بن محمد بن علي الحسيني، الجرجاني (ت 816ه), تحقيق، نصر الدين تونسي, شركة القدس للتصدير، ط1, القاهرة, 2007م: 267.

(6) الخطابة أصولها تأريخها في أزهر عصورها, محمد ابو زهرة, دار العلوم، ط1, القاهرة, 1934م: 179.

(7) ينظر: الخطب والمواعظ, محمد عبد الغني حسين, دار المعارف, ط2, مصر, د 0 ت: 56 .

(8) سورة الحجرات: 13.

(9) ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر الفني القديم, صالح بن رمضان, دار الفارابي, ط1, بيروت, 2001م: 301 .

(10) لم اعثر لهُ على ترجمة في كتب التراجم المتيسرة ولكنّه ينحدرُ من قبائل كندة اليمنية الّذين منهم اخوال الخليفة السفاح .

(11) النعمانان هما: النعمان بن المنذر بن ماء السماء، والنعمان بن المنذر بن امرئ القيس، والمنذران هما: المنذر بن ماء السماء، والمنذر بن امرئ القيس، والقابوسان هما: قابوس بن المنذر، وقابوس بن قابوس بن المنذر، وجميع هؤلاء من ملوك الحيرة الكنديين الّذين هاجروا من اليمن الى العراق في عصر ما قبل الإسلام, ينظر: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د . جواد علي, دار السّاقي، ط4، 2001م: 5/ 197- 309, 7/ 288 .

(12) خالد صفوان التميمي, تحقيق, يونس السّامرائي، دار النضال، ط1, بيروت, 1991م: 117.

(13) م . ن والصفحة.

(14) م . ن: 117, وللمفاخرة رواياتٌ أخرى فيها بعض الاختلاف بسبب الرواة, واختصار المدونين, وللمزيد ينظر, م . ن: 119 – 123.

(15) ينظر: معاني النحو, فاضل السامرائي, دار إحياء التراث العربي, ط1, بيروت، 2007م: 2/ 214- 215 .

(16) ينظر: الرسائل الأدبية: 529 – 530.

(17) ينظر معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي, طبع جامعة الكويت، د . ط، د . ت: 47.

(18) سورة النّمل: 20 – 23.

(19) كتاب الصناعتين, أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت 395ه), تحقيق, علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية, ط1, القاهرة, 1952م: 266.

(20) الازدواج: وهو ان يأتي المتكلّمُ بكلمات مزدوجة, وأكثر ما يقع في الاسماء, امّا السجع: فهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، القول البديع في علم البديع, مرعي يوسف حنبلي(ت 1033ه)، تحقيق, محمد بن علي الصامل، كنوز اشبيليا، ط1، الرياض, 2004م: 94، 85 .

(21) ينظر: تحليل الخطاب الشعري, محمد مفتاح, المركز الثقافي العربي, ط2, الدر البيضاء، 1986م: 124.

(22) خالد صفوان التميمي: 117- 118 .

(23) ينظر: معاني النحو: 1/ 38 .

(24) م . ن: 4/ 135.

(25) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسي, طبع بيت الحكمة, بغداد, 1988م: 217- 222.

(26) معاني النحو: 4/ 47.

(27) جواهر البلاغة (المعاني – البيان – البديع), السيد أحمد الهاشمي, المكتبة العصرية, ط1, بيروت, 1999م: 331.

(28) خالد صفوان التميمي: 118.

(29) ينظر: معاني النحو: 4/ 201 .

(30) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها, فضل حسن عباس, دار الفرقان, ط4، الأردن, 1997م: 199 .

(31) ينظر: معاني النحو: 4/ 269 .

([32]) هي البئر المباركة الموجودة في الحرم الشريف في مكة المكرمة, ينظر: السيرة النبوية، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت 774ه), تحقيق، مصطفى عبد الواحد, د . ط، د . ت: 1/ 173.

([33]) وهي سقي الحُجّاج الماء في موسم الحج وكان يقوم بها العباس بن عبد المطلب, ينظر: م . ن: 1/ 173 .

([34]) ينظر: معاني النحو: 1/ 141 .

([35]) ﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ ﴾ الطور: 4- 6 .

([36]) ينظر: م . ن: 4/ 213 .

([37]) ينظر: م . ن: 4/ 206 .

([38]) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب حبرُ الأمّةِ وترجمان القرآن، ت 68 هـ, ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة, احمد بن حجر العسقلاني, تحقيق, علي محمد بجاوي, دار الجيل, ط1, بيروت، 1412ه: 4/ 151.

([39]) خالد صفوان التميمي: 118.

([40]) ينظر معاني النحو: 4/ 47 .

([41]) ينظر: أسرار البلاغة, ابو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت471ه), تحقيق, محمود محمد شاكر, مكتبة الخانجي, ط1, القاهرة, 1991م: 11.

([42]) ينظر: الاستشهاد والاحتجاج باللغة, محمد عبيد, عالم الكتب، ط3, بيروت, 1988م: 86 .

([43]) سورة الشعراء: 195.

([44]) سورة إبراهيم: 4.

([45]) سورة نوح: 7.

([46]) سورة المائدة: 45.

([47]) سورة المائدة: 45.

([48]) سورة طه: 94.

([49]) سورة يوسف: 17.

([50]) خالد صفوان التميمي: 118- 119 .

([51]) الاستشهاد والاحتجاج باللغة: 86 .

([52]) ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي, شوقي ضيف، دار المعارف، ط 5، مصر، 1960م: 49.

([53]) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب, عبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1093ه), تحقيق, عبد السلام هارون, مطبعة المدني، ط4, جده, 1997م: 1/ 9.

([54]) ينظر: الاقتراح في علوم النحو, جلال الدين السيوطي (ت 911ه), تعليق، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006م: 14.

([55]) النثر الفني عند عبد الله بن عباس, نور رعد عبد الله, رسالة ماجستير, كلية التربية للبنات, جامعة تكريت، 2012م: 163.

([56]) البيان والتبيين, ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت255ه), تحقيق, عبد السلام هارون, مطبعة الخانجي, ط7، القاهرة: 1/ 339.

([57]) ينظر: معاني النحو: 4/ 223 .

([58]) ينظر: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديثة, الطيب البكوش, الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ط3، مصر: 186.

([59]) م . ن: 180.

([60]) ينظر: أدوات النص, محمد تحريشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق, 2000م: 20 - 21 .

([61]) خالد صفوان التميمي: 119.

([62]) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 170.

([63]) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي من باهلة، خطيبٌ يُضرب به المثل في البيان, يقال (أفصحُ من سحبان) و (اخطبُ من سحبان), اشتُهر في الجاهلية وأدرك الإسلام وأقام في دمشق أيام معاوية بن أبي سفيان, توفي سنة 54 هـ, ينظر: الأعلام تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي, دار العلم للملايين, ط5, بيروت، 1980م: 3/ 3.

([64]) حولاً كريتاً: حولاً كاملاً، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس, مجد الدين محمد بن يعقوب الزبيدي (ت 1205هـ)، تحقيق, عبد الستار أحمد فراج، مطبعة وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 1965م، مادة: (كَرَتَ) .

([65]) البيان والتبيين: 1/ 339 .

([66]) خالد صفوان التميمي: 119- 121.

Abstrac

The boast takes place between bin Safwan and bin Makhramah. Ibin Safwaan has gained the winning and predominance depending on his high argumentative ability in managing the honorary speech style which leads to suppress the opposite and disarm his oratorical ability by mentioning the boasts of Muthar's branch and his multitude virtues resembling Abi Al Abbass Al – Saffah and Khalid Bin Safwaan. One of the most advantageous of this virtues is the relationship with the prophet Mohammed (Allah peace and blessing be upon him). Moreover, his relation with the major Caliphs

Abo Baker and Omar (Allah's content be upon them). Additionally, his knowledge in Allah's book and the prophetic sunnah which is greatly represented by Ibin Abbas and the Muslim scientists from Muther. Furthermore, the virtue of faith and approving in Islamic religion and what is the Islamic religion has brought. Importantly, the eloquence in Arabic language (the language of the Glorious Quran) which grants him with loftiness. All these virtues which is isolated in Muther's branch other than Yeman's branch The later is characterized with inferiority. Since, they are ruled by Woman and works offensive jobs. Ibin Safwan has adopted linguistic and Quranic text to support his situation , grant his honorary oration with success , disarm the opposite , weaken his argumentative strength and then gain the winning upon him.